

# أخبار العرب

## زواج على ورقة طلاق - قصة الوحدة المصرية السورية - الإنفصال (3 من 3)

د. رءوف عباس

22 فبراير 2002

كانت الوحدة المصرية السورية التي أنشئت "الجمهورية العربية المتحدة" فصلا مثيرا من فصول التاريخ العربي المعاصر، عبرت عن أمل الجماهير العربية الكبرى التي تجمع شتاتهم، وتفرض وجودهم على الساحة الدولية، وتخلص الوطن العربي من اليأس الصديدي التي أصابت عضوا من الجسد العربي في فلسطين.

علقت الآمال على دولة الوحدة التي ولدت على غير انتظار فجأة مع مطلع فبراير 1958، وحصلت على شهادة ميلاد رسمية بعد استفتاء شعبي كاسح في 21 فبراير، وجاءت ولادتها في أشد فصول الحرب الباردة تقريبا وهياجاً، فصل ملء بالأعاصير والعواصف والرمود التي أثارها قطبا الحرب الباردة وأصابت فيما أصابت شعوب العالم التي فضلت أن تملك عصمتها بيدها وتتأى بنفسها عن الارتباط بأحدى الكتلتين، جاء ميلاد الوحدة في هذا الجو المضطرب، بعد عامين من حرب السويس التي كانت علامة فارقة في تاريخ حركة التحرر الوطني في العالم وتاريخ الشرق الأوسط. ولكن الوحدة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات ونصف، فما لبث أن وقع انقلاب الانفصال في 28 سبتمبر 1961 لتطوى صفحة من تاريخ العرب المعاصر، ولينزوى معها أمل الوحدة الذي داعب أحلام الأجيال التي عاشت تنادى بالقومية العربية من العقد الأول من القرن العشرين والتي راعها أن تنبذ أحلامها بتقسيم المشرق العربي إلى عدد من الدول والدويلات روعى في تصميمها مصالح الاستعمار فاقترن نضالهم ضد الاستعمار بالنضال من أجل اذابة الحدود المصطنعة واقامة الدولة العربية الواحدة.

وقع إنقلاب الوحدة مساء 28 سبتمبر 1961، واستولى قادته على مراكز التحكم العسكرية والإعلامية في دمشق، وأصدروا بيانهم الأول، وساموا المشير عبد الحكيم عامر الذي أصبح في قبضتهم، بما يكشف عن سعيهم للعودة إلى سياسة إملاء الشروط التي اتبعتها العسكر مع الساسة منذ استقلال سورية، وهو ما رفض عبد الناصر أثناء متابعته لما يجرى في دمشق من خلال عرضه عمليات أقامها لإدارة الأزمة بمبنى الإذاعة المصرية بالقاهرة، لأن طريق التنازلات لانهاية له، ويجعل إرتباط سورية بمصر إسمياً، وبدأت إشارات ترد من حلب حول رفض وحدات الجيش بها تأييد الانقلاب وتحركهم لضربه، فأرسل عبد الناصر تعزيزات مصرية لإعادة الأمور إلى نصابها، ولكنه ما لبث أن قرر عودة عبد الحكيم عامر إلى القاهرة على الفور إذا إستطاع إلى ذلك سبيلاً، وإنهاء جميع العمليات العسكرية ووقف إرسال التعزيزات حتى لا يكون ثمن الحفاظ على دولة الوحدة إراقة الدماء المصرية السورية.

### الإنفعال أحبط المشروع الوحدوي

تفجرت مظاهرات الطلاب في القاهرة بصورة تلقائية يومي 29 و 30 سبتمبر، (وكنتم أحد من شاركوا فيها)، كان جيل الشباب مشحوناً بالأمل في الوحدة باعتبارها الطريق الأمثل لتحرير فلسطين، وبدا الإنفصال بمثابة تحويل الأمل إلى سراب. زحفت جموع الشباب من كل الكليات صوب جامعة القاهرة، وانطلقت الشعارات التي تدعو إلى التمسك بالوحدة، وتصب اللعنات على أعدائها، والاصرار على الحديث مع الرئيس. ويبدو أن عبد الناصر كان حريصاً على تهدئة الشباب بنفسه، ولعله وجد بعض السلوى في حماس ذلك الجيل الذي يؤمن بالعروبة، حتى يؤكد للذين يحاولون إنتهاز الأزمة لضرب النظام أنه لا زال يمسك بزمام الأمور، وأن النظام يستمد شرعيته من التعبير عن أمل الجماهير، ومن تمتعه بتأييدها، ففوجئ هذا الحشد الهائل من الشباب بعد الناصر ببرز من داخل مبنى إدارة الجامعة ويقف على درج المدخل، ووجدت نفسى على بعد مالا يزيد على ثلاثة أمتار من مكانه، واستمعت إليه يخطب بلا ميكروفون وقد عم السكون المكان، والشباب يترقب بأعصاب مشدودة ما قد يأتي به الغد، ولا يقطع السكون إلا هتافات مدوية من أن لآخر بحياة الوحدة (التي إحتضرت) وبسقوط الرجعية العربية وخاصة الملك حسين وسقوط الامبريالية، كلما ورد في خطاب الزعيم ما يشير إلى مؤامرات هؤلاء واولئك، وقد أعلن بوضوح أنه لايقبل إراقة الدم العربي من أجل الوحدة، ولكنه أن الأوان لمواجهة الرجعية العربية بدلا من مهادنتها، والتصدي للاستعمار وأعوانه.

### القبول بالأمر الواقع

وكان يوم الخامس من أكتوبر مأتماً حقيقياً عند جيل الشباب، فقد أعلن جمال عبد الناصر بيانا ذكر فيه ما أعلنه في حرم جامعة القاهرة قبل أيام من رفض التدخل العسكرى كسبيل للحفاظ على الوحدة، لأن العدو الرئيسي الذي يجب أن نقرغ لمواجهته هو الاستعمار وإسرائيل، وأبدى إستعداده لقبول لجنة تحقيق من الجامعة العربية في الإقتراءات التي يعلنها الإنفصاليون من راديو دمشق، على أن تعلن نتيجة التحقيق على الأمة، وختم حديثه بصوت متهدج قائلاً: "انه ليس من

المحتم أن تبقى سورية جزءا من الجمهورية العربية المتحدة، ولكن من المحتم أن تبقى سورية،" وأعلن عن استمرار مصر رافعة لعلم الجمهورية العربية المتحدة، مرددة نشيدها، حاملة اسمها.

### التداعيات السلبية

كانت أحداث الأيام السبعة بمثابة كابوس ثقيل عاشه الشباب المصري من الطلاب، ومما يلفت النظر أنهم عاشوه وحدهم، أما غيرهم فقد تعاملوا مع الحدث بقدر كبير من اللامبالاه، بل حدث عند المصريين نوع من التوجس من العرب والعروبة، وخاصة ما تناقله الناس من قصص الإهانات التي لحقت بالمصريين الذين خدموا في سورية على يد النظام الإنفصالي، وما لقيه من تأييد قيادات البعث شركاء الأمس في الوحدة – ومباركة "المواطن العربي الأول" شكرى القوتلى للنظام الجديد. لم يكن المصريون قد تهيأوا بعد لفكرة الاندماج في كيان عربي، فجاء وقع الأحداث صدمة كبرى زادت الكثيرين منهم نفورا من العروبة، وخاصة الجيل الذى كان يعيش على ذكريات القومية المصرية، ويضيق بالاسم الجديد للدولة الذى غيب اسم مصر، وكان الأقباط أكثر المصريين نفورا من الاندماج في كيان عربي كبير. وانعكس ذلك كله في سيل جارف من الشائعات كان ماثرا لشعور عام بالمرارة والإحباط.

وإذا كان المصريون قد أصابهم الغم والحزن، فإن أنظمة الحكم في الأردن والسعودية والعراق ولبنان وتركيا وإيران لم تخف سعادتها بالإنفصال، وكذلك الإتحاد السوفيتى، أما الولايات المتحدة الأمريكية ودول حلف الأطنطى الدائرة في فلكها فقد فضلت أن ترقب الموقف عن كثب إنتظارا لما قد يسفر عنه، ونصحت أمريكا حلفائها وأصدقائها في المنطقة بالتريث وعدم التسرع في الإعراف بالنظام الجديد.

### الأصداء العالمية

لم يكن ما حدث في سورية مفاجئا للولايات المتحدة الأمريكية، إذ تحفل الوثائق الأمريكية بفيض زاخر من التقارير عن الأزمة الإقتصادية في سورية وما سببه من ضيق وسخط قطاعات كبيرة من السوريين، ومدلولات ضيق البيروقراطية السورية والعسكريين السوريين بمزاحمة المصريين لهم في الإدارة والجيش. وتتنوع مصادر المعلومات التي إعتمدت عليها التقارير من رؤساء الطوائف التقليدية، إلى كبار أصحاب رأس المال، إلى بعض السياسيين من رجال الأحزاب المنحلة، إلى بعض عناصر التكنوقراط المصريين الذين ذهبوا للخدمة في سورية في ظل دولة الوحدة دون أن يؤمنوا بإيمان حقيقيا بالعروبة. وكانت القنصلية الأمريكية بدمشق وحلب من أنشط تفراتر جمع المعلومات. وبدأت التقارير ترى شررا وسط الرماد بعد صدور قرارات يوليو الاشتراكية.

### العلاقات الأمريكية المصرية

والحق أن أمريكا –على عكس ما صورته لنا أجهزة الاعلام عندئذ – كانت تعيد بناء الجسور مع عبد الناصر، استجابة لمآبدها من رغبة في هذا الصدد بعد قيام الوحدة، فبدأت إتصالات على الصعيد غير الرسمي من خلال مصطفى أمين، ومحمد حسنين هيكل، والسفير اللبناى نديم دمشقية، وزادت الإتصالات من خلال القنوات الدبلوماسية بعد الصدام مع عبد الكريم قاسم وخورشوف حول النشاط الشيوعى في المنطقة، ونكبة الشيوعيين المصريين والسوريين (على نحو ما أشرنا من قبل)، فحدث نوع من التقارب النفسى بين الجمهورية العربية المتحدة وأمريكا، إتخذ أبعادا إقتصادية في مجالات المعونة، وتشجيع الحافاء الأوربيين على مساعدة مصر في خطة التنمية، بل والاتجاه إلى المعونة في خطة التنمية في سورية، وتبلغ الذروة في دراسة تمويل المرحلة الثانية من بناء السدالعالى بتمويل أوربى (ألمانى – بريطانى).

### إسرائيل هي المستفيدة

ولا غرابة في ذلك، فالحفاظ على علاقة طيبة مع عبد الناصر كانت أفضل من معاداته، فهو يتحكم في مسار خطوط أنابيب النفط عبر سورية، كما يتحكم في مروره عبر قناة السويس، فالتعاون معه أفضل بالنسبة لمصالح الغرب في المنطقة. تبقى مشكلة إسرائيل التي أصبح أمنها جزءا من الأمن القومى الأمريكى بعد 1956 على وجه التحديد. وقد برهن عبد الناصر على عدم الاستعداد لمواجهة معها، وخاصة أنه كان لديه ما يشغله: كإعادة ترتيب بيت الوحدة، والصراع مع عراق عبد الكريم قاسم، والتصدى لمحاولات الإتحاد السوفيتى توريث الجمهورية العربية المتحدة في علاقة غير متكافئة تقود إلى التبعية. وهكذا كانت سنوات الوحدة فترة راحة واطمئنان عند إسرائيل، وأصدقاء الغرب بالمنطقة. ومن هنا جاء حرص الغرب على استمرار الصراع بين عراق عبد الكريم قاسم والجمهورية العربية المتحدة عن طريق تقديم بريطانيا للمساعدات لنظام عبد الكريم قاسم وخاصة السلاح تشجيعا له على موازنة النفوذ الشيوعى الغربى من ناحية، وعلى المضى في سياسته المعادية للجمهورية العربية المتحدة من ناحية أخرى.

### رؤية وكالة المخابرات الأمريكية

في عشية وقوع إنقلاب الإنفصال، صدرت وثيقتان أمريكيتان سريتان إحداهما من الخارجية الأمريكية إلى السفارات العاملة في الشرق الأوسط تحذر من التورط في أى تصرف مؤيد للإنتقلاب "لأن سقوط الجمهورية العربية المتحدة ليس من مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية" والوثيقة الثانية كانت تقدير موقف من إعداد المخابرات المركزية إنتهت فيه إلى أن "بقاء الجمهورية العربية المتحدة ضرورى للحفاظ على المصالح الأمريكية ومنع التغلغل الشيوعى في المنطقة".

وقد وضعت هذه السياسة موضع التنفيذ منذ الوهلة الأولى، فالتقى السفير الأمريكى بعمان بالملك حسين ست مرات في 28، 29 سبتمبر 1961، كان الملك يستدعى السفير في كل مرة طالبا موافقة بلاده على الإعراف الفورى بالإنتقلاب

وعلى أن يحرك الأردن قواته على الحدود السورية لدعم الانقلاب، وكان السفير في كل مرة يحذر الملك من خطورة التسرع بالاعتراف، ومن مغبة حشد القوات. والتقارير التي كان يرسلها السفير الأمريكي بعمان إلى حكومته بين ساعة وأخرى تعكس لهفة الملك حسين، وحرصه على تمزيق أوصال دولة الوحدة، حتى أنه ضرب بنصائح السفير الأمريكي عرض الحائط وسارع بالإعتراف بحكومة الانقلاب، وحشد قواته على الحدود السورية دعماً له.

### موسكو تعترف بالإنقلاب الانفصالي

وجاء إعتراف الإتحاد السوفيتي بحكومة الانفصال في أعقاب إعتراف الأردن، لطمة قوية لعبد الناصر لم يخف التعبير عنها، عندما قابله السفير الأمريكي بالقاهرة بعد بيان الخامس من أكتوبر الذي أعلن فيه حرصه على بقاء سورية، ليبلغه أن حكومة بلاده تدرس الإعتراف بالنظام الجديد في سورية على ضوء مصالحها، فأعرب عبد الناصر عن شكره لهذا الحرص من جانب الولايات المتحدة على مراعاة مشاعره، "على حين سارع السوفيت بالاعتراف دون التشاور معنا".  
وفعل بقية سفراء حلف الأطلنطي نفس الشيء قبل إعلان إعتراف بلادهم بحكومة الانفصال.

### الدروس والعبر المستفادة

ويتوالى إعتراف الدول بالنظام الجديد، طويت صفحة من صفحات التاريخ العربي المعاصر، حفلت بالأحداث والصراعات، فلا شك أن قيام الوحدة، كان مشجعاً للضباط الأحرار العراقيين على الإطاحة بالحكم الملكي في ثورة دموية لتقوم على أنقاضها الجمهورية، وما ترتب على ذلك من خشية بقية الجيران من إمتداد الثورة إلى أراضيهم فكان إستجداد الأردن بالقوات البريطانية، واستجداد لبنان بالقوات الأمريكية، ولم تنسحب هذه القوات إلا بعد ما قدم عبد الناصر تعهدات (غير معلنه) بعدم التدخل في البلدين، ثم مالبتت الحرب الباردة العربية أن تأججت بين نظام عبد الكريم قاسم ونظام عبد الناصر وما تبع ذلك من أزمة بين الجمهورية العربية المتحدة والسوفييت.

كانت الطريقة الارتجالية التي تمت بها الوحدة، وعدم نضج الوعي بالعروبة عند المصريين، والسياسات التي صيغت لدولة الوحدة لا تبشر باستمرار الارتباط بين مصر وسورية، كما أن الواقع العربي المهلهل كان مسؤولاً بدوره عن تلك النهاية المأساوية للوحدة، ولا يبقى من التجربة إلا ما كان يمكن أن نتعلمه منها من دروس قد يفيد منها عرب القرن الحادي والعشرين، لعلنا نعود إليه في فرصة أخرى.